٩ ـ الواثق باللهِ وولده

اسمه «الواثق بالله؛ أبو جعفر هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد» وأمه أم ولد، يقال لها «قراطيس الرومية». ولد يوم الاثنين لعشر بقين من شعبان سنة ست وتسعين ومائة، ذكر ذلك «ابن عبد ربه» في «عقده» و«السيوطي» في «تاريخ الخلفاء». وأضاف «ابن عبد ربه»: وكان أبيض إلى الصفرة، حسن الوجه جسيماً، وفي عينه اليمنى نكتة بياض، نقش خاتمه «محمد رسول الله ﷺ»، وخاتم آخر «الواثق بالله».

ورزق من الولد «محمداً المهتدي» وأمه أم ولد، يقال لها «قُرْب»، و«عبد الله» و«أبا العباس؛ أحمد» و«أبا إسحاق؛ محمداً»، و«أبا إسحاق؛ إبراهيم»[1].

وذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وفي سنة ثمان وعشرين ومائتين استخلف على السلطنة «أشناس التركي» وألبسه وشاحين مجوهرين، وتاجاً مجوهراً، وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً، فإن الترك إنما كثروا في أيام أبيه. في سنة إحدى وثلاثين ومائتين، ورد كتابه إلى أمير البصرة يأمره أن يمتحن الأئمة والمؤذنين بخلق القرآن، وكان قد اتبع أباه في ذلك، ثم رجع في آخر أمره، وفي هذه السنة قتل «أحمد بن نصر» الخزاعي، وكان من أهل الحديث، قائماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أحضره من بغداد إلى سامراء مقيداً، وسأله عن القرآن، فقال: ليس بمخلوق، وعن الرؤية في القيامة، فقال: كذا جاءت الرواية، وروى له الحديث، فقال «الواثق» له: تكذب، فقال للواثق: بل تكذب أنت، فقال: ويحك! يُرَى كما يُرَى المحدود المتجسِّم ويحويه مكان ويحصره الناظر؟ إنما كفرتُ برب صفتُه ما تقولون فيه.

فقال جماعة من فقهاء المعتزلة الذين حوله: هو حلال الضرب، فدعا

---

(١) العقد الفريد (٥/ ١٢٢).

بالسيف. وقال: إذا قمت إليه فلا يقومَنَّ أحد معي، فإني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها، ثم أَمَرَ بالنِّطَع فأجلس عليه، وهو مقيد، فمشى إليه، فضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد، فصلب بها، وصلبت جثته في سُرَّ من رأى، واستمر ذلك ست سنين إلى أن ولي «المتوكل» فأنزله ودفنه، ولما صلب كتب ورقة وعلقت في أذنه، فيها:

هذا رأس «أحمد بن نصر بن مالك» دعاه «عبد الله» الإمام «هارون» إلى القول بخلق القرآن ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة، فعجَّله الله إلى ناره، ووكَّل بالرأس من يحفظه ويصرفه عن القبلة برمح، فذكر الموكَّل به أنه رآه بالليل يستدير إلى القبلة بوجه، فيقرأ سورة «يسّ» بلسان طَلْق. رويت هذه الحكاية من غير وجه.

وفي هذه السنة استفَكَّ من الروم ألفاً وستمائة أسير مسلم، فقال ابن أبي دؤاد ـ قبَّحه الله ـ: من قال من الأسارى: (القرآن مخلوق) خلصوه وأعطوه دينارين، ومن امتنع دَعُوه في الأسر.

قال الخطيب: كان «أحمد بن أبي دؤاد» قد استولى على «الواثق» وحمله على التشدد في المحنة، ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن، ويقال: إنه رجع عنه قبل موته، وقال غيره: حُمِلَ إليه رجل فيمن حُمِلَ مكبلٌ بالحديد من بلاده، فلما دخل ـ وابن أبي دؤاد حاضر ـ، قال المقيد: أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم الناس إليه، أعَلِمَهُ رسول الله ﷺ فلم يدعُ الناس إليه، أم شيء لم يعلمه؟

قال «ابن أبي دؤاد»: بل علمه، قال: فكان يَسعُه ألَّا يدعو الناس إليه وأنتم لا يسعكم؟ قال: فَبُهِتُوا.

وضحك «الواثق» وقام قابضاً على فمه، ودخل بيتاً، ومَدَّ رجليه، وهو يقول: وسِعَ النبي ﷺ أن يسكت عنه ولا يسعنا، فأمر له أن يعطى ثلاثمائة دينار، وأن يُرَدَّ إلى بلد، ولم يَمْتَحِن أحداً بعدها، ومقت «ابن أبي دؤاد» من يومئذ. والرجل المذكور هو «أبو عبد الرحمٰن؛ عبد الله بن محمد الأذرمي، شيخ أبي داود والنسائي»[1].

(١) تاريخ الفقهاء، ص: ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

وذكر صاحب «العقد الفريد» عن أبي عثمان بكر بن محمد، قال: وفدت على «الواثق»، فلما دخلت وسلمت، قال: هل خلَّيتَ وراءك أحداً يهمُّك أمره؟ قلت: أُخَيَّة لي ربَّيتها فكأنها بنتي، قال: ليت شعري! ما قالت حين فارقتَها؟ قلت: أنشدتني قول الأعشى:

تقول ابنتي يوم جَدَّ الرحيل أرانا سواء ومن قد يَتِمْ
أبانا فلا رِمْتَ من عندنا فإنا نخاف بأن نُخْتَرَمْ
أرانا إذا أضمرتك البلا دُ نَجْفَى وتقطع مِنا الرَّحِمْ

قال: ليت شعري ما قلتَ لها؟ قال: أنشدتُها يا أمير المؤمنين قول جرير:

ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

قال: أتاك النجاح، وأمر له بعشرة آلاف درهم، ثم قال: حَدِّثْني حديثاً تروبه عن «أبي مهدية» مُسْتَظْرِفاً؛ قلت: يا أمير المؤمنين! حدثني الأصمعي، قال: قال لي «أبو مهديَّة»: بلغني أن الأعراب والأعزاب سواء في الهجاء، قلت: نعم، قال: فاقرأ: «الأعزاب أشد كفراً ونفاقاً» ولا تقرأ «الأعراب»، ولا يغرنَّكَ العَزَب، وإن صام وصلى، فضحك «الواثق» حتى شَغَر برجله، وقال: لقد لقي «أبو مهدية» من العزبة شراً، وأمر له بخمسمائة دينار[1].

وقال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» نقلاً عن «الصولي»: كان «الواثق» يسمى «المأمون الأصغر» لأدبه وفضله، وكان «المأمون» يعظمه ويقدمه على ولده، وكان «الواثق» أعلم الناس بكل شيء، وكان شاعراً، أعلم الخلفاء بالغناء.

وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت، وكان حاذقاً بضرب العود، راوية للأشعار والأخبار.

وقال الفضل اليزيدي: لم يكن في خلفاء بني العباس أكثر رواية للشعر من «الواثق» فقيل له: كان أروى من «المأمون؟» فقال: نعم، كان المأمون قد مزج بعلم العرب علم الأوائل من النجوم والطب والمنطق، وكان «الواثق» لا يخلط بعلم العرب شيئاً.

---

(١) العقد الفريد (٢/ ١٠١).

وقال «يزيد المهلبي»: كان الواثق كثير الأكل جِدًّا.

وقال «ابن فهم»: كان للواثق خِوانٌ من ذهب مؤلف من أربع قطع يحمل كل قطعة عشرون رجلاً، وكل ما على الخِوان من غضاة وصفحة وسكرجة من ذهب، فسأله «ابن أبي دؤاد» ألَّا يأكلَ عليه للنهي عنه، فأمر أن يكسر ذلك ويضرب ـ أي يسك منه النقود ـ ويحمل إلى بيت المال.

وقال الحسين بن يحيى: رأى «الواثق» في النوم كأنه يسأل الجنة، وأن قائلاً يقول له: لا يهلك على الله إلَّا من قلبه مَرْتٌ، فأصبح فسأل الجلساء عن ذلك لم يعرفوا معناه، فوجَّه إلى «أبي محلم» وأحضره، فسأله عن الرؤيا والمَرْت، فقال «أبو المحلم»: المَرْتُ: القَفْر الذي لا ينبت شيئاً، فالمعنى على هذا: لا يهلك على الله إلا من قلبه خالٍ من الإيمان خُلُوَّ المَرْتِ من النبت، فقال له «الواثق»: أريد شاهداً من الشعر في المَرْت، فبادر بعض من حضر فأنشد بيتاً لبني أسد:

ومَرْت مَرُوتاة يحاربها القطا ويصبح ذو علم بها وهو جاهل

فضحك «أبو محلم» وقال: والله! لا أبرح حتى أنشدك، فأنشده للعرب مائة قافية معروفة لمائة شاعر معروفاً، في كل بيت ذكر المَرْت، فأمر له «الواثق» بمائة ألف دينار.

وأضاف «السيوطي»: مات «الواثق» بسر من رأى يوم الأربعاء لستٍّ بقين من ذي الحجة سنة مائتين واثنتين وثلاثين، ولما احتضر جعل يردد هذين البيتين:

الموت فيه جميع الخلق مشتركٌ لا سوقة منهم يبقى ولا مَلِكُ
ما ضرّ أهلَ قليل في تفارقهم وليس يغني عن الأملاك ما ملكوا

وحكي أنه لما مات ترك وحده، واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل، فجاء جرذ فاستلَّ عينه فأكلها[1].

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٩٨ ـ ٢٩٩.